تابع محاضرة حول المقاربة الإثنوغرافية والأنثروبولوجية

3- أساليب البحث الأنثروبولوجي

تجري عادة الدراسات الأنثروبولوجية وفق ثلاثة مراحل متتالية تبدأ بالبحث الاثنوغرافي كخطوة أولى ثم بعد ذلك يأتي دور البحث الاثنولوجي الذي يشكل الخطوة الثانية التي لا تقل أهمية عن الأولى، وتعتبر هاتين الخطوتين بمثابة المرحلة التمهيدية والقاعدية التي تقوم على أساسها البحوث الأنثروبولوجية ولذا لا بد من تعريف هاتين الخطوتين.

3-1-المنهج الاثنوغرافي

المنهج الاثنوغرافي (l'ethnographie)هو الدراسة الميدانية العلمية للظواهر الثقافية التي لا تتم الا بواسطة الاتصال المباشر بالجماعات ومعايشتهم بصفة تامة وذلك ما يتطلب عادة من علماء الانثروبولوجيا الإقامة بين افراد الثقافة المدروسة بداية من تعلم لغة الأهالي من أجل ربط الصلة بهم. فالهدف الأساسي بالنسبة للأثنوجرافيا، هو الدراسة الوصفية الدقيقة لطرق العيش وأساليب الحياة اليومية سواء المادية أو اللامادية والتي تتمثل في عناصر الثقافة كاملة، انطلاقا من المصنوع اليدوي بكل أنواعه، والفنون بكل أشكالها وصولا الى القيم والمعايير والتقاليد والعادات والشعائر والطقوس...الخ، في مكان معين وفي مرحلة زمنية معينة. فالأثنوغرافيا ليست بعلم مستقل بحد ذاته حيث أنها تعد مقدمة للدراسة الاثنولوجية، مهمتها تكمن في تجميع المعطيات الميدانية التي تعد المادة العلمية بالنسبة للدراسة الاثنولوجيا مع وصفها وصفا دقيقا واضحا ومفصلا، يشمل جميع النشاطات الثقافية التي يقوم بها أفراد الجماعة المدروسة.

3-2-المنهج الاثنولوجي

يعنى المنهج الاثنولوجي (l'ethnologie) بدراسة المادة الإثنوغرافية من خلال تصنيفها ومقارنتها وتحليلها لتصبح بمثابة القاعدة الأساسية التي يشتغل عليها عالم الأنثروبولوجيا ولهذا الغرض يقوم الباحث الاثنولوجي بتجميع البيانات وترتيبها وتنظيمها ليتسنى له ابراز أوجه التشابه والاختلاف بينها مما يمكنه من تحليلها تحليلا يمهد الطريق للتنظير الذي هو من مهام عالم الأنتروبولوجيا. وعليه يمكننا أن نقول أن الباحث الاثنولوجي هو حلقة الوصل بين الباحث الاثنوغرافي وعالم الانثروبولوجيا. وتجدر الإشارة الى أن هذه المراحل الثلاثة يمكن لعالم الأنتروبولوجيا القيام بها جميعها، غير أن الأفضل هو أن يقوم بها ثلاثة علماء كل حسب تخصصه.

يبحث علم الاثنولوجيا في طرق حياة المجتمعات التي لا تزال موجودة في عصرنا الحاضر أو المجتمعات التي يعود تاريخ انقراضها الى عهد قريب لدينا عنه سجلات تكاد تكون كاملة. فلكل مجتمع طريقته الخاصة في الحياة وهي

التي يطلق عليها العلماء الانتروبولوجيون مصطلح "الثقافة". ويعتبر مفهوم الثقافة من أهم الأدوات التي يتعامل بها الباحث الأنثروبولوجي لتعيين المجموعة المنظمة من العادات والأفكار والمواقف التي يشترك فيها أعضاء أي مجتمع، ولذا يكاد يكون من المتعذر على أي عالم انثروبولوجي ان يبحث هذه الأمور دون استعمال هذا المصطلح.

4- الإجراءات المنهجية الإثنوغرافية

ان المنهج الاثنوغرافي القديم لم يكن يتصف بالعلمية ذلك أن المقارنة بين المجتمعات التي تم اجراؤها آنذاك، اعتمدت بقدر كبير على مدونات الرحالة والتجار والمبشرين فقط ومع ذلك استطاعت أن تشكل أساسا للنظرية التطورية. وتجدر الإشارة الى أن" براون" و"مالينوفسكي" و"مورغان" يعدون من بين الأوائل الذين قاموا بدراسات ميدانية تمت على التوالي، بجزر "الاندمان" و جزر "التربورياند" و محيط مجتمع "نيويورك" و ذلك في أواخر القرن التاسع عشر. تجري الدراسة الإثنوغرافية كأي دراسة علمية، وفق ثلاث خطوات متتالية تتمثل في الملاحظة بالمشاركة ثم الوصف وأخيرا التحليل.

4-1- الملاحظة بالمشاركة L'observation participante

تقتضي هذه التقنية من الباحث أن ينغمس في الحياة اليومية للجماعة المراد دراستها من خلال المشاركة الفعلية في كل الأنشطة خلال مدة الدراسة مع الخضوع لكل المؤثرات المادية والطبيعية والبشرية والعقائدية وبالتالي فإنه على الباحث أن يتكلم لغتهم وأن يتقيد بعاداتهم وأن يتبنى قيمهم ومعاييرهم في الحكم على الأشياء. وحتى يقوم بالوصف المطلوب ينبغي على الباحث أن يسجل أثناء إقامته، كل ما يشاهده بدقة وموضوعية وهذا يقتضي منه ليس فحسب التحكم في لغتهم بل كذلك كسب ثقتهم ليستطيع الاندماج بينهم وإدراك الرمزية والمعاني والدلالات السياقية الكامنة في تصرفاتهم. ويمكن للباحث أيضا الاستعانة بمجموعة من الأسئلة يطرحها، على عينة ممثلة للثقافة المقصود دراستها في حالة وقوع الظاهرة مما يسمح له بتسجيل الملاحظات على الطبيعة من أجل جمع المعلومات.

يعتبر هذا الأسلوب في الدراسة من أصعب الأساليب وذلك لأن التحيز والمحاباة غير المقصودة من قبل الباحث قد تحرف الواقع. فدراسة ثقافة معينة، تتطلب الموضوعية خاصة وأن الباحث نفسه نتاج ثقافة أخرى ربما كانت مغايرة للثقافة المدروسة وربما تتشابه معها في بعض الجوانب ولكنها تختلف عنها في الجوهر، مما سيقوده الى خطأ في جمع المعلومات ومنه في تحليلها. فهو يعتقد في بعض الأحيان أن الدوافع وراء سلوك معين لأناس من الثقافة المدروسة هي نفس الدوافع التي تكمن وراء سلوك مشابه في ثقافته وإذا ما استقصى الأمور فإنه سيجد نفسه قد أخطأ في أحيان كثيرة. وهذا يقودنا الى الاعتقاد بل الجزم بأن تدريب الباحثين لا بد أن يكون تدريبا دقيقا جيدا للقيام بمثل هذه الدراسات والا فانتهم ينتهون الى نتائج مشبوهة في دراستهم. ومهما يبلغ هذا التدريب فإنه سيبقى هناك

تفاوت ما في موضوعية المعلومات التي يحصل عليها الباحث وفي طريقة تحليلها، غير أن التدريب الجيد يقلل من فرص هذا التفاوت ويقرب النتائج المحصلة، من الموضوعية.[1]

بالرغم من أن علم الانثروبولوجيا أصبح يهتم بالثقافات الحديثة **الا أن** الاهتمام بالثقافات البدائية لا يزال القاعدة وذلك لان هذه الثقافات تتميز بنظام اجتماعي قائم على روابط القرابة والعشيرة أي أن الأسرة والقبيلة تعتبران وحدة اقتصادية وتربوية تحافظان على أمن الافراد و تقومان مقام النظم السياسية في الدول الحديثة، فتكسبان ولاء الافراد وتشرفان على تربيتهم و أمنهم كما أنهما تجلبان لهم الاطمئنان والاستقرار النفسي

إن هذا النوع من النظم الاجتماعية لا يقوم على القوانين والأعراف المكتوبة وإنما يقوم على العادات والتقاليد التي يتفاعل من خلالها الافراد بعضهم مع البعض وعليه فان دراسة هذه الثقافات أولى من دراسة الثقافات الحديثة التي تنظمها القوانين المكتوبة المفسرة لسلوك الأفراد عكس المجتمعات البدائية التي لا تعرف سمات ثقافتها الا من خلال حركات أفرادها اليومية وممارساتهم وطقوسهم وأكلهم وشربهم...الخ ولذا فإن بقاء النظام الاجتماعي مرهونا ببقاء أفراد الجماعة. وبالرغم من قناعة علماء الأنثروبولوجيا ودفاعهم عن تقنية الملاحظة بالمشاركة الا أنها تجد من ينتقدها من بين علماء الاجتماع المعاصرين الذين يرون أنه من غير الممكن لأي باحث غريب أن يستطيع الاندماج بالمستوى المطلوب من أجل التقصي في ثقافات بدائية، لأنه سيكون حتما متأثرا بمنطلقاته النظرية ومبادئه وقيمه واتجاهاته التي ستظهر بصفة لاشعورية في نتائج الدراسة.

4-2- الوصف La description

يعد الوصف من أهم خطوات البحث الاثنوغرافي وعليه تتوقف مصداقية النتائج، وبالتالي فان الباحث مقيدا بعدد من الالتزامات تتصدرها الأمانة والصدق والدقة. فالمطلوب هو تسجيل المعلومات حول الظاهرة المدروسة مع الحرص على تفادي التدوين العشوائي الذي قد يؤدي به الى تجميع بيانات بدون علاقة بموضوع دراسته وهذا الذي ينبغي أن يتجنه الباحث الاثنوغرافي بصفة خاصة لأن بعض الممارسات قد تكون ذات طابع فردي وبالتالي تكون حالات شاذة لا يمكن تعميمها على جميع الأفراد الذين ينتمون الى الثقافة المدروسة. وهذا يقودنا الى الاعتقاد بل الجزم بأن تدريب الباحثين لا بد أن يكون تدريبا دقيقا جيدا للقيام بمثل هذه الدراسات والا فإنهم ينتهون الى نتائج مشبوهة ومغلوطة لأنها بنيت على أساس معلومات خاطئة. ومهما يبلغ هذا التدريب فإنه سيبقى هناك تفاوت ما في موضوعية المعلومات التي يحصل عليها الباحث وفي طريقة تحليلها.

4-3-التحليل Analyse

تبدأ مرحلة التحليل بعدما ينتهي الباحث من تجميع البيانات التي يراها كافية لفهم وتفسير الظاهرة المدروسة ثم يقوم مباشرة بعد ذلك بترتيبها وتصنيفها بشكل يساعده على معالجتها. وتتمثل هذه العملية في محاولة ربط العلالقة بين الانشطة الثقافية للظاهرة المعنية بالدراسة. وينبغي الإشارة الى أن العمليات الصيرورية تكون عادة غير مخططة، حيث أنها تحصل في كل مرة بصفة تلقائية لكنها تتكرر نمطيا على شكل الطقوس والشعائر والحفلات كالزواج على سبيل المثال، خاصة إذا كان المجتمع يتمتع بدرجة عالية من الوحدة والتجانس، أما عندما يكون المجتمع مركبا، فان العمليات الصيرورية، من حيث الطقوس وكل الأنشطة بصفة عامة، تكون مختلفة باختلاف الطبقة أو الفئة.

ففي كلا الحالتين، يقوم الباحث بتحليل محتوى العلاقات بعد تصنيفها الى فئات وترتيبها وتفكيكها وفق الأساليب الاثنولوجية من أجل الكشف عن الآثار المسببة للظاهرة المدروسة حيث يقترح مجموعة من الأسباب التي قد تنسجم مع موضوع الدراسة، ليخضعها جميعا للفحص والاختبار الدقيق. وينتهي عمل الباحث الاثنوغرافي بعملية التركيب للفئات والعمليات من أجل الوصول الى نتيجة مقنعة وعليه فان مرحلة التحليل هي مرحلة تتوسط الوصف والتنظير الذي هو من اختصاص عالم الانثروبولوجيا.

المقاربة الاتنوميتودولوجية (الاثنومنهجية)

تمهيد

ظهرت الاتنوميتودولوجيا عن طريق شخصية معروفة و هو "هارولد جارفنكل " (Harold Garfinkel) . استعمل الكلمة أو المصطلح سنة 1946 ليدلل بها على العمل الاجتماعي السوسيولوجي وقد كان "جارفنكل" ينتمي الى الاتجاه الوظيفي، يعمل تحت اشراف " تالكوت بارسونس" (Talkott Parsons) الى غاية حصوله على الدكتوراه بسبب اهتمامه بالتنظيم الاجتماعي لكن في إطار الاثنومنهجية (منهجية الجماعات) غير أن التحاقه بفريق "شولتز" (Schultz) في"نيويورك"، جعله يتأثر بالفلسفة الظاهراتية(الفينومنولوجيا) مما أدى به الى التخلي عن النظرية الوظيفية والنسقية التي يقول به "بارسونس".

بالرغم من أن أفكار "جارفنكل" تجمع بين التفاعلية الرمزية والفينومنولوجيا إلا أن الكثير يرجعها الى هذا الاتجاهات النقدية التي تعرض لها علم الاجتماع في الستينات من القرن العشرين، و قد أصبح ينظر الى الاتنوميتودولوجية باعتبارها النظرية البديلة للنظريات الاجتماعية التقليدية السائدة آنذاك، خاصة وأنه كان "جارفنكل" ينتقد بشدة الاتجاه الوضعي الدوركهايمي وامتداداته المعاصرة.

1- أصل كلمة الاتنوميدودولوجيا (Ethnométhodologie)

تتألف الكلمة من جزأين: الأول ethno وهي كلمة من أصل يوناني وتعني الجماعة الاجتماعية أو الاثنية والثاني وهو méthodologie وتعني كما هو معروف المنهجية. أما المصطلح كاملا فيعني الطريقة التي تستعملها الجماعات الاجتماعية في صياغتها لمعرفتها الخاصة والمعاني والدلالات التي تمنحها لتصرفاتهم وتعبيرهم عن الأشياء والاحداث التي تجري حولهم. فالاتنوميتودولوجيا وفق "جارفنكل" ليس علم اجتماع المعرفة فقط بل علم اجتماع المعرفة العادية الذي يهدف الى الكشف عن الطرق التي يسلكها أعضاء المجتمع خلال حياتهم اليومية والمعاني التي يمنحونها لأنشطتهم.

ضمن الأبحاث التي كان "جارفنكل" يقوم بإنجازها في هذا الاتجاه وجد أن المحاكم الأمريكية لها لجان تساعد المحكمة في الفصل في بعض القضايا. وتتشكل هذه اللجان من عدد من الأشخاص المحلفين يتداولون سريا ثم يقومون بعملية انتخاب يبدي كل واحد رأيه على ورقة حول المتهم بصفة سرية: جاني أم غير جاني.

حاول دراسة عدة مداولات ووجد أن ضمن هؤلاء المحلفين من هم غير متخصصين في الحقوق وبالتالي هم أناس عاديون من الشعب، لكن بصفة عامة وجد بأنهم يصلون الى نتائج صائبة ومنطقية جدا.

فالسؤال الذي طرحه "جارفنكل" هو: كيف يمكن لهؤلاء معرفة ما إذا كان المتهم مجرما أو غير مجرم؟
الفرضية: ان لهؤلاء المحلفين منهجية علم الاجتماع في الوصول الى المعرفة وهي منهجية من أجل الوصول الى كيفية بناء الدلالة داخل الجماعة الواحدة

2-تحليل الظاهرة الاجتماعية وفق الاتنوميتودولوجيا

الدلالة كم يشير "جارفنكل" شيء متغير غير ثابت في الزمان وفي المكان ولذا من الضروري المشاركة في بناء تلك الدلالة. انطلاقا من هذه الفكرة أصبح "جارفنكل" ينظر الى العلوم الموجودة (الفيزياء والكيمياء والبيولوجيا...الخ على أنها علوم لها منهجيتها الخاصة بها مثلها مثل علم الاجتماع بينما الاتنوميتودولوجيا ترى وتدرس المجتمع على أساس أن ليس هناك منهجية عامة ولا توجد منهجية واحدة علمية بل أن علم الاجتماع كما يقر "جارفنكل" علم ديكتاتوري يفرض مفاهيمه باسم العلم وقواعده ونتائجه بغض النظر عن القائدة الأصلية للمجتمع ذلك أن الباحث الاجتماعي كما يتصوره "جارفنكل" يسجل كلام الناس ويحرفه ويؤوله وفق تحليله ويدعي بأنه يفسر الظاهرة الاجتماعية.

فالاتنوميتودولوجيا كما طورها "جارفنكل" لا يمكنها أن تتعامل مع خارج الظواهر الاجتماعية ولا تعمل بمبدأ لا شفافية الواقع. فعلم الاجتماع في نظره يأتي بمفاهيم من عنده ويحاول تفسير تصرفات الأفراد بدون أن يأخذ يعين الاعتبار عقلانيتهم، كما يعيب عن علم الاجتماع، اعتباره أن الأفراد المبحوثين، لا يدركون سبب أفعالهم وعقلانية سلوكهم، مثل ما يعرفها عالم الاجتماع، ذلك أن هذا الأخير يعتقد أن السبب الموضوعي لا يمكن أن يكشفه ويتعرف عليه الا هو لأنه أمام مادة غير شفافة ينبغي البحث من وراءها للوصول الى المعرفة. فالاتنوميتودولوجيا كما يتصورها "جارفنكل" وأتباعه، لا يهما الوجه الخارجي للظاهرة بل ما يهمها كيف تنتج الدلالة من طرف البشر العاديين وبالتالي فلا يمكن أن نستنتج ذلك من الخارج.

وتهدف الاتنوميتودولوجيا إلى وصف كيفية قيام أعضاء المجتمع أثناء تفاعلهم في الحياة اليومية بصياغة المفاهيم حول المواقف المختلفة وكيفية قيامهم بتشكيل الحقيقة الاجتماعية ويرى أصحاب هذا المنظور أن تشكيل الحقيقة الاجتماعية تعد عملية مستمرة من التفسير ، وذلك نظرا لأن اتفاق أعضاء المجتمع حول تعريف مواقف الحياة تعد عملية متغيرة (ديناميكية) وغير ثابتة ومن ثم فإن أصحاب المنظور الاتنوميثودولوجي يضيفون إلى الاتجاهات

النظرية الأساسية في علم الاجتماع واهتمامهم بدراسة التغير الاجتماعي على مستوى الوحدات الاجتماعية الصغيرة النطاق.

على الرغم من أن المنظور الاثنوميثودولوجي يعتبر أحد الاتجاهات المعاصرة للتفاعلية الرمزية، إلا أن هذا المنظور يعتبر منظوراً مختلفاً تماماً عن غيره من النظريات الأخرى التي تشكل الاتجاه التفاعلي، إذا يهتم هذا المنظور بتحليل الطرق التي يتحدث بها أعضاء المجتمع إلى بعضهم البعض في الحياة اليومية بحيث يظهر هؤلاء الأعضاء على أنهم كائنات عقلانية توجه سلوكهم مناهج عقلية رشيدة.

3- أدوات جمع البيانات

وقد انتقد أتباع الاتنوميثودولوجيا طرق وأدوات البحث المستخدمة حالياً في علم الاجتماع مثل المسح الاجتماعي والمقابلات، كما رفضوا استخدام الاستبيان كوسيلة لجمع البيانات الكمية وذلك على أساس أن مثل هذه الأساليب الكمية تفصل بين الباحث وموضوع دراسته، وتتضمن معرفة سابقة بالواقع يفرضها الباحث فرضاً على أداة بحثه، بالإضافة إلى أن موقف التفاعل بين الباحث والمبحوث يؤثر على حجم ونوعية البيانات التي يتم الحصول عليها.

و لكي يتعرف الباحث الاثنوميثودولوجي على أفكار و قواعد سلوك المبحوث دون أي تدخل من طرق الباحث، يرى أصحاب هذا المنظور أنه يمكن استخدام طرية الملاحظة بالمشاركة، كما يستخدمها أصحاب منظور التفاعلية الرمزية، وذلك بالإضافة إلى استخدام بعض المناهج مثل ذلك (المنهج شبه التجريبي) الذي يطلق عليه (التجربة الاتنوميتودولوجية) و المنهج الآخر الذي يطلق عليه جارفنكل (المنهج التوثيقي) وهو المنهج الذي يستخدمه كل من الباحث والأفراد العاديين في تفسير سلوكهم أثناء تفاعلهم في المواقف المختلفة للحياة اليومية.
و هذه المناهج التي يستخدمها المنظور الاثنوميثودولوجي في دراساته تشير إلى أنه يعتبر متحيزاً للأسلوب الكيفي.

كما أن هذا المنظور يختلف عن النظريات التقليدية في علم الاجتماع من حيث أنه لا يهدف أساساً إلى تفسير السلوك البشري والتعرف على حقيقة اجتماعية معينة بل إنه يهتم أساساً بالكشف عن المنهج أو الطرق التي يستخدمها الناس في تشكيل الواقع الاجتماعي والمحافظة عليه مما يشير إلى أن المنظور الاتنوميثودولوجي قد ساهم في تطور مناهج البحث أكثر مما ساهم في تطور نظرية علم الاجتماع المعاصرة.

4- بعض أوجه الاختلاف بين الاتنوميتودولوجيا وعلم الاجتماع

*الاتنوميتودولوجيا تختلف عن السوسيولوجيا الكلاسيكية من حيث ملاحظة كيف يمكن معرفة دلالة أفعال الأفراد و هل هي الدلالة الوحيدة،

* من أين جاءت الدلالة ؟ انها سوسيولوجيا بدون استقراء لأن دلالة فرد لا يمكن أن تكون دلالة فرد آخر،

*علم الاجتماع يعطي مقاييس ومفاهيم من عنده و يعممها على كل المجتمع،

*لا يمكن تطبيق هذه المفاهيم على كل أفراد المجتمع لأن الاستيعاب مختلف أما الاستجواب فهو ليس طريقة سوسيولوجية لكنها مستعارة من طرق الشرطة (L'enquête) أو الاستنطاق واستعملت هذه الطريقة تقريبا بنفس الهدف لكن مع احترام بعض الشروط،

*على علم الاجتماع أن يفهم أولا كيف تبنى هذه الدلالة ،

*الناس لها مناهج وطرق في صنع الدلالة: كيف يتصرفون؟ لماذا يتصرفون؟ كيف يفهمون الأشياء الخاصة بهم ؟ كيف يصنع فئات المجتمع هذه الدلالات؟

الاتنوميتودولوجيا ترشح نفسها لدراسة الظواهر الاجتماعية كبديل لعلم الاجتماع الكلاسيكي

5- مبادئها

* المرجعية (l'indexicabilité) أي أن كل فعل يتم في سياق معين ولفهم التعامل خلال التفاعل من الضروري الإشارة الى هذه التعامل في الحالة التي تجري فيها في الزمان والمكان. فالفكرة هنا هي أن معنى كل ظاهرة مرتبط بالسياق التي تتم فيه، ارجاع شيء الى شيء. الشيء في بعده المادي)

* الانعكاسية (la réflexibilité)بينما المرجعية هي جزء مادي أو طبيعي في التعاملات بين الافراد فالانعكاسية متغيرة من فرد الى فرد. لا يمكن بناء الدلالة عند الأفراد بنفس الطريقة. (الشيء في بعده الثقافي)

* القابلية للوصف (la describilité) وهي إمكانية الوصف والتلخيص

*الانتمائية (l'appartenance) التحكم في المعرفة الخاصة بالمجتمع ومقاييسه وقيمه ومعاييره سواء كانت طبيعية (أصلية) أو اندماجيا (مستعارة) .

* مثلهم مثل علماء الاجتماع فهم يلاحظون بطريقتهم الظاهرة ولديهم افتراض حولها ثم يختبرونها في أذهانهم بمنطقهم وعقلانيتهم وبالتالي يحددون مواقفهم وهكذا يكونون معرفتهم الخاصة بهم.

المقاربة الثقافية

1- نشأة وتطور مفهوم الثقافة.

بدأ المعنى الحديث لكلمة الثقافة يتشكل خلال عصر التنوير سنة 1700 وكلمة الثقافة مصطلح أصله لاتيني، تدرج عبر التاريخ الفكري من معنى العناية بالحقول والمواشي الى معنى قطعة أرض مزروعة خلال القرن الرابع عشر وانتقل في بداية القرن السادس عشر من الدلالة على "حالة" إلى الدلالة على "فعل" أي العمل على تنمية شيء معين، ثم من زراعة الأرض إلى تثقيف العقل.
دخل مصطلح الثقافة الى قاموس الأكاديمية الفرنسية على شكل ثنائي (ثقافة الفنون على سبيل المثال) لتحديد الشيء المثقف وانتهي التطور إلى صيغة فردية تعبر عن تربية العقل. وقد نظر علماء التنوير الى الثقافة كخاصية مميزة للبشر، فالثقافة بالنسبة لهؤلاء المفكرين تتمثل في كل المعارف المتراكمة والمنقولة من طرف البشرية كوحدة متكاملة خلال التاريخ وذلك ما عكسه الاتجاه العمومي السائد آنذاك

ان كلمة ثقافة بالمعنى الأنثروبولوجي تضم أكثر من معناها العامي الذي يعني السلوك المكتسب عن طريق التعلم كتذوق الفن والموسيقى والأدب...الخ، ليشمل جميع سبل الحياة وسلوك الأفراد الذي يواجهون به مشكلاتهم اليومية. فالثقافة تعني الطريقة في الحياة التي يشترك بها جميع أفراد المجتمع. كل مجتمع انساني ينظر الى الثقافات الأخرى من خلال ثقافته ويحلل سلوك أفراد المجتمع الآخر تحليلا غير موضوعي وبخلفية تعتمد على خبراته وعلى معطياته الثقافية. هناك بعض السلوك الذي يتعلمه الفرد في المجتمع أو يتبناه ولا يكون هذا السلوك عاما في أفراد مجتمعه وفي هذا الحال يكون الانسان قد تعلمه من أفراد آخرين واشترك معهم في تبنيه دون أن يتبناه جميع أفراد المجتمع الواحد

2- مميزات الثقافة

2-1- الثقافة: كل متضامن

الثقافة كما يعرفها "مالينوفسكي"(Malinowski) ، ليست ترتيبا عشوائيا لعدد من السمات وأساليب التفكير والعمل الغير متناغمة والغير منظمة، بل هي عكس ذلك، تميل إلى التساند والوحدة والتماسك ويضيف أنه من أجل فهم أي ثقافة، ينبغي التمييز بين نظرتين مختلفتين: الأولى وجهة نظر وظيفية والثانية شكلية. ففي محاولته تفسير الظواهر الثقافية وعناصرها، كل عنصر حسب وظيفته والدور الذي يلعبه داخل النظام الكلي للثقافة، استنتج "مالينوفسكي" أن أي عنصر لا يمكن إدماجه بطريقة عشوائية في الشكل الكلي للثقافة التي ينتمي إليها وأن أي ثقافة تشكل عناصرها كلا متضامنا.
وهذا ما يؤكده "بواس" (Boas) بقوله :"أي ثقافة في أي مجتمع، لا تقبل إلا العناصر التي تناسبها وذلك طبقا

للمعايير التي تعمل بها". و قد حاولت "بينيديكت" (R. Benedict) من جانبها، إبراز عملية الانتقاء الثقافي داخل الجماعة وتفسيرها حيث توصلت إلى أن أي ثقافة داخل أي مجتمع من المجتمعات، تتميز بطابع عمومي وأن كون كل مجتمع يملك ثقافة خاصة به، ذلك هو نتيجة أن كل مجتمع يختار نمطا ثقافيا دون الآخر بصفة خصوصية، و مجموعة العناصر هذه، تكون في علاقة ضيقة وثيقة، تشكل ما يسميه علماء الأنتروبولوجيا، "المركب الثقافي" (complexe culturel) حيث أن داخل هذا المركب الثقافي، تتجمع عدة عناصر لتشكل هي الأخرى كلا منسجما وموحدا.

وتتكون الثقافة الواحدة من أجزاء ومركبات تختلف في أهميتها باختلاف عدد الافراد الذين يأخذون بها فبالرغم من وجود مكونات ومركبات متعددة لكل ثقافة، الا ان مجموع هذه المركبات والعناصر هو أهم وأكبر بكثير من الأجزاء والمركبات كل على حدة. فالثقافة من هذه الناحية هي مثل جسم البشر، لا يمكن أن نحصل على انسان بمجرد تجميع أعضاءه وعليه فان الثقافة هي عبارة عن نظام كامل ومتكامل يقسمه علماء الأنتروبولوجيا الى سمات ثقافية ومركبات ثقافية وأنماط ثقافية. فالسمات الثقافية، العادات على سبيل المثال، هي أصغر مكون للثقافة وعندما تكون السمات كثيرة ومتكاملة ومتناسقة فيما بينها فإنها تشكل ما يسمى بالمركب الثقافي كالزواج وكل المراسيم المتعلقة به وعندما تكون هذه المركبات متكاملة هي الأخرى، فإنها تشكل ما يسمى بالأنماط الثقافية أما العوامل التي تربط الأنماط الثقافية معا في نظام واحد متكامل فهي:

* القيم التي تضعها الثقافة لهذه الأنماط،
* المعتقدات التي يتعلمها الانسان من ثقافته،
* الطقوس والاحتفالات التي تخلق جوا يجبر الانسان على الامتثال لسلوك الجماعة

2-2- الثقافة أفكار ملزمة

الثقافة ليست فقط عبارة عن سلوك يتحلى به الانسان داخل مجتمعه بل هي في الواقع تتعدى ذلك حيث أنها موجودة في أفكار الانسان وفي عقله وخياله بحيث تملي عليه سلوكا معينا وطريقة معينة في مواجهة المشكلات وحلها. هناك مجموعة من الأفكار والمفاهيم المشتركة بين أفراد الثقافة الواحدة، تحدد طريقة تفكيرهم وتعين لهم طريقا مشتركة للسلوك في مناسبات معينة، تسمى هذه المفاهيم المشتركة المعايير الاجتماعية أو النماذج المثالية لتلك الثقافة. فالثقافة بهذا المعنى، تقدم لأفرادها معان للأشياء وتضع قيما معينة لتلك الأشياء كما أنها تبين للإنسان أهمية التقيد بتلك القيم. فليس من الضروري أن تكون العناصر الثقافية ملموسة ومرئية دائما وفي جميع الأحوال، فمثلا يمكننا أن نشاهد الطقوس الدينية لإحدى القبائل الافريقية ولكننا لا نتمكن من مشاهدة المعتقدات والدوافع الكامنة وراء تلك الطقوس.

2-3- عناصر الثقافة

تتكون الثقافة من عناصر مشتركة بين أفراد يعيشون في مجتمع واحد ومن الممكن أن يتألف هذا المجتمع من مجموعات ثقافية داخل الثقافة الواحدة تسمى الثقافات الدخيلة وهي عبارة عن أجزاء من الثقافة العامة تشترك مع ثقافات فرعية أخرى في الإطار الثقافي العام وتختلف عنها في عناصر ثقافية معينة. لا يشترك جميع أفراد المجتمع الواحد بنفس الدرجة في جميع العناصر الثقافية المعطاة، فالإنسان لا يتمكن من الالمام بجميع عناصر تلك الثقافة أو تبنيها ويمكن تقسيم العناصر الثقافية الى:

* **العناصر العامة** وهي العناصر التي يتبناها كل إنسان يعيش في تلك الثقافة مثل العادات العامة ويقل عدد هذه العناصر المشتركة كلما كانت الثقافة أكثر تعقيدا واتساعا ويكون مركز هذه العناصر العامة في اللاشعور عند الانسان.

* **العناصر الخاصة** وهي العناصر التي يشترك فيها مجموعة من أفراد الثقافة الواحدة كالثقافة الزراعية أو المدنية أو الثقافة التي يتبناها أفراد المهنة الواحدة وهكذا فبالرغم من كونها اختيارية إلا أنه لا يتبناها في معظم الأحيان سوى من عاشها ومن نشأ عليها.

***العناصر المتغيرة** وهي عناصر ثقافية يشترك فيها جزء فقط من أفراد الثقافة العامة مثل ما هو الحال في الخصوصيات الثقافية كما يصعب حصر هذه العناصر الثقافية التي تزداد تعقيدا بازدياد عددها الذي يرتفع باتساع الثقافة الواحدة.

***العناصر الخاصة الفردية** وهي العناصر التي يختص بها الفرد ولا تعد الثقافة مسؤولة عنها كالاستجابات العاطفية والتصرفات الجانبية ومن الممكن الاستغناء عنها في تقسيماتنا هذه وذلك لأنها تتعلق بالإنسان كفرد يكون تصرفه نابعا من تجربة خاصة به وبالطريقة التي نشأ بها. وبصفة عامة تكون الثقافات البسيطة أكثر توحيدا ويمكن توقع سلوك الانسان أكثر من الثقافات المعقدة وذلك لأن الإطار العام للثقافة البسيطة، يلتزم به أفراد تلك الثقافة أكثر من التزام أفراد الثقافات المعقدة

2-4- الثقافات الفرعية

يميز علماء الاجتماع بصفة عامة وعلماء الأنتروبولوجيا بصفة خاصة بين الثقافة العامة والثقافات الفرعية نظرا لوجود داخل المجتمع الواحد، طبقات اجتماعية متباينة وجماعات إثنية مختلفة (différents groupes ethniques) ويشير "لينتن" في هذا الصدد، إلى الثقافات الفرعية الخاصة بالمتشردين والفقراء والشباب...الخ. كما أن المجتمعات المعقدة تعرف اختلافا ملحوظا بين الجماعات من حيث طريقة التفكير والفعل رغم تقاسمها الثقافة العامة. ونظرا لحالة عدم الانسجام بين شرائحها، تفرض الثقافات الفرعية على الأفراد نماذج أكثر مرونة وأقل إكراه من تلك

السائدة في المجتمعات البدائية.[2] وقد يكون للنمط الثقافي طابعا أقليا نظرا لعدم التوازن الجهوي المتعدد الجوانب في بلد ما أو على مستوى الشرائح الاجتماعية، يمكن في هذه الحالة الإشارة اليه على أنه ثقافة فرعية. فالنماذج الثقافية التي تمثل الأقلية، قد تكون بقايا مقاومة من ماضي المجتمع الأصلي أو واردات ثقافية خارجية أو ابتكارات أصيلة. وعلى العموم فان الثقافات الإنسانية المختلفة كما يذكر "لينتون"، قد تتشابه في عناصر كثيرة وتختلف في عناصر أخرى وأتى هذا التشابه بين الثقافات نتيجة لتشابه الانسان من حيث الحاجات والتركيب الفسيولوجي كما تأتي الاختلافات من البيئات الجغرافية والأحداث التاريخية عبر التطور ونتيجة للمعتقدات المختلفة التي تنعكس بالتالي على طريقة اشباع حاجات الانسان

3- العناصر القاعدية للثقافة

3-1- القيم الاجتماعية.

تعرف القيم الاجتماعية على أنها عبارة عن مبادئ مرجعية، يشترك فيها مجموعة من الأفراد وينبثق عنها سلوكا تعتبره الجماعة معياريا وبهذا المعنى، فإن القيم من شأنها قيادة السلوك وتوجيه وهي كذلك العنصر الأساسي في مجموعة العناصر التي تكون الثقافة أي المعتقدات و الأعراف والتقاليد والتطلعات، والأفكار والمشاعر والمبادئ التي تتبناها الجماعة ويمكن الإشارة الى بعض القيم على سبيل المثال لا الحصر: الأمن، الحرية، المسؤولية، الاستقلالية، المبادرة، التطابق ..الخ

كما أن القيم حسب "بارسونس" (Parsons)، هي عبارة عن تعهدات لأشخاص وأفراد بأن يدعموا اتجاهات وأنماط معينة من الأفعال من أجل الجماعة بصفتها نسقا ثم بعد ذلك وبشكل ثانوي من أجل أدوارهم داخل الجماعة، و بهذا الشكل فإن أي تغير يحدث على مستوى القيم يؤدي إلى تغيير جذري على مستوى النسق الاجتماعي الكلي. و يصفها "باكيت" (Paquette) بكونها عناصر ترتبط ارتباطا وثيقا بسلوك الفرد وتترجم غالبا ما هو عميق في داخله وكامن في ذاته، غير أنها ليست ثابتة، يمكن أن تتأكد وتصبح أقوى ويمكن أن تتحول تدريجيا مع خبرتنا في الحياة وتتميز إضافة الى ذلك، بالنسبية وعدم الاستقرار، تتحول كلما اتسعت خبرة الأفراد، فالقيم بهذا المعنى، تعد مرجعية تؤطر الحياة اليومية للأفراد. فالمرجعيات الجماعية التي تتمثل في القيم والمعايير والتصورات الجماعية، ليست لها وجودا ملموسا، فهي حقائق ذهنية ولغوية أي أنها لا توجد الا في تفكير الناس ومن خلال اتصالاتهم و تفاعلاتهم و يمكن التماسها أو تحديدها من خلال تصرفاتهم و توقعاتهم.

5- المعايير الاجتماعية

إن المعايير الاجتماعية كما يصفها "مندراس" (Mendras.) ، هي تلك الاتجاهات التي يشترك فيها أفراد الجماعة والتي تيسر لهم سبيل التفاعل والتواصل، فالحاجة إلى التواصل بين أفراد الجماعة تدفعهم إلى تنمية المعايير المختلفة

المشتركة التي تؤدي إلى الاتجاهات المشتركة أيضا. ويضيف أن الجماعة تصل الى تكوين المعايير الخاصة، نتيجة لمعان ودلالات ثابتة للأشياء. فالحالات والأحكام التي يصدرها الأفراد على الواقع، تؤدي إلى إنشاء معايير شخصية ذلك أنها تشكل تصورات (schèmes) مرجعية توجه مشاعر الأفراد وأحكامهم وتتضمن حسب رأيه، مجموعة القواعد والتوجيهات المحددة(prescriptions) لطرق الإدراك والحس والفعل وبطريقة أشمل كما يضيف فان المعايير تعد السلم المرجعي في عملية التقييم الاجتماعي حيث أنها تعين مسبقا كيفية الإدراك والتفكير والشعور والفعل وبعبارة أخرى هي في مثابة قواعد يمليها المجتمع، تعكس نماذج القبول أو الرفض واتفاق الناس حول نظرة معينة للواقع.

5-1- وظيفة المعايير الاجتماعية

تلعب المعايير الاجتماعية دورا هاما في تنمية التفاعل بين أفراد الجماعة مما يؤدي الى تحقيق التماسك والاستقرار داخل المجتمع كما تساهم بقدر كبير في تقليص نسبة الارتياب والغموض التي قد تخيم على اتجاهات الأفراد وقراراتهم وآرائهم وحتى تصرفاتهم ومشاعرهم. فالعمل بالمعايير والانطواء تحت زاويتها، يؤثر على سلوك الأفراد، ذلك أنها تنشأ نتيجة التفاعل الاجتماعي والضغوطات الناجمة عنه والتي قد تؤثر ليس على السلوك فحسب، بل على الدلالات التي يمنحها الأفراد لحالة معينة.

6التصوراتالجماعية

ان التصورات الجماعية كما يعرفها "موسكوفيتشي" (Moscovici) هي عبارة عن بنى عقلية محددة بصفة ثنائية أي أنها بنى نفسية واجتماعية في نفس الوقت وهي منظومة دائمة من الإدراك والمعارف نسبة لجانب معين من عالم الفرد. **أما وفق** "دوركهايم"، فهي المادة الأولية لأي شعور جماعي، تتميز بالاستقلالية والحياة الخاصة.

6-1- وظيفة التصورات الجماعية

لقد حاولت عدة بحوث امبريقية توضيح الوظيفة الاجتماعية للتصورات الجماعية في بلورة وتوجيه السلوك والتحقق من دورها الحاسم في تحديد التصرفات، وانتهت إلى أن التصورات الفردية ما هي إلا عبارة عن إعادة إنتاج المعايير الاجتماعية العامة. فالوظيفة الاجتماعية الجوهرية للتصورات الجماعية تتمثل في المساهمة في العمليات التكوينية الميسرة للاتصال بين أفراد الجماعة والسلوك الاجتماعي.

6-2- المميزات الأساسية للتصورات الجماعية تتميز التصورات الجماعية بمجموعة من الخصائص يمكن تلخيصها فيما يلي:

*لها طابع خارجي على الأفراد ذلك أن الانتماء الى مجتمع ما ليس بالأمر الارادي ولا الاختياري لأن الفرد يكون بالضرورة ملزما بثقافة الوسط الاجتماعي الذي يعيش داخله،

*لها طابع إكراهي خانق، خاصة في المجتمعات التقليدية لأنها تحدد مسبقا القواعد والسلوك والتصرفات وطريقة التفكير،

*يتم إدراكها وتأويلها بطريقة مختلفة باختلاف الجماعات والطبقات الاجتماعية، والإيديولوجيا والسياسة والدين والأخلاق....الخ، كما يتم تأويلها حسب المصالح، خاصة الاقتصادية منها.

*لها طابع موضوعي نظرا لوجودها وحضورها المادي الخالص وتتناقض مع التصورات الفردية من حيث الغاية ذلك أن هذه الأخيرة تتميز بالطابع الذاتي والشخصي وبعدم الثبات على وجه الخصوص.

*ليست نابعة من المنطق العقلاني للفكر الإنساني بل هي نتيجة القوالب الجاهزة. يتصور الفرد الأشياء بما فيها الأشخاص وفق تصورات وسطه ومحيطه الاجتماعي وتتميز بدرجة من الإكراه، تصل الى حد التأثير على شخصية الأفراد في كل جوانبها.

ايفات الليتش ونظرية "مجتمع بلا مدرسة"

تمهيد

ظهرت في المنتصف الثاني من القرن العشرين عدة كتابات تعنى بنقد النظم التعليمية المتمثلة في المدرسة الحديثة بصورتها التي استقرت عليها منذ قرنين من الزمن. وتعود هذه الانتقادات الى عدد لا يستهان به من المفكرين التربويين والفلاسفة من أمثال "بيار بورديو" (Pierre Bourdieu) في كتابه الأساسي "إعادة الإنتاج" الذي يخصص فيه جزءا كبيرا لمفهوم "العنف الرمزي" داخل المدرسة و "بزيل برنشتاين" (Basil Bernstein) في مؤلفه حول الرموز السوسيو اللغوية وعلاقتها بالتحصيل الدراسي مؤكدا على أنها عناصر ثقافية تكرس داخل المدرسة، الفرق بين الطبقات الاجتماعية إضافة الى "باولو فريري" (Paolo Ferreri) في كتابه " تربية المقهورين" و "ايفان الليتش" (Ivan Illich) في كتابه الأساسي الموسوم "مجتمع بلا مدرسة" سنة 1970.

ينتمي إيفان الليتش إلى فلسفة سياسيّة واجتماعية تعرف بالمدرسة اللاسلطوية، والتي يمكن تعريفها باعتبارها إيديولوجية اجتماعية وسياسية، فكرتها الأساسية رفض السلطة الخارجية، واتخاذ مواقف جذريّة منها، سواء كانت من الدولة، أو رب العمل، أو الهرميات الإدارية والمؤسسات القائمة كالمدرسة والكنيسة... إلخ، وتشير الكتابات التي تؤرخ لتاريخ اللاسلطوية المتعلقة بالتعليم، إلى أنّ أول ما كُتب في تلك الرسالة الذي نشرها "ويليام جودوين" (William Godwin) عام 1795، وصولا إلى كتاب بول غودمان" (Paul Goodman) التعليم الإلزامي الفاشل" 1964، وكتاب "إيفرت رايمر" "موت المدرسة" 1965، في حين أصبح تزايد الناس على استهلاك مؤسسة المدرسة يتزايد بشكل كبير.

أسباب رفض المدرسة بالنسبة ل "الليتش"

1- التعليم الالزامي

يرى "الليتش" أن التعليم الالزامي ما هو الا مظهر من مظاهر الاعتداء على حريات الأفراد والذي يحمل في عمقه تسلطية اذ كيف يجبر طفل على الجلوس في مكان واحد، كل يوم ولست ساعات متواصلة، يتخللها استراحة لبرهة وجيزة وبعدها يتم العودة الى مقاعد الدراسة.

وقد يجادل البعض بأن التعليم الالزامي محصور في العمر الذي لا يدرك الانسان فيه حريته ومعنى وجوده، فالأطفال في هذا العمر لم يصلوا بعد لوعي يجعلهم قادرين على التمييز بين ما هو صالح مما هو غير ذلك. ويشير أتباع هذا الاتجاه، أنه ليس هناك مصدر أكيد للابتهاج عند الطفل أكثر من الوعي بأن له أهمية ما في هذا العالم، بيد أن إلزامية التعليم هذه عادة ما تشعر الطفل أنه نكرة لا رأي له. كما يضيف بقوله: "لا يوجد في العالم شيء أكثر اثارة للشفقة من طفل تجده خائفا كلما نظرت اليه وهو يشاهد بشكل قلق تقلبات رأي المعلم.

وحتى هذه المبررات غير مسلم بها عند الفلاسفة وعلماء النفس، فمثلا، يرى البعض من بينهم، ان المعنى الذي قام عليه هذا القول هو معنى ميتافيزيقي (يتجاوز البعد الواقعي) وأنه يحتاج منا افتيك واعادة التفكير فيه باعتباره

مسلمة لا شك فيها. ويرى من جانبه الطبيب النفسي "فكتور فرانكل" (Victor Fränkel) أن كل شخص له كيان نفسي مستقل عن الاخر، فاذا صح الأمر على شخص فلا يصح بالضرورة على الآخر. وعموما فان جوهر المشاكل فيهما يتعلق بالتعليم الإلزامي كما يرى "الليتش"، أنه يبنى ويشرع لمفهوم آخر، الا وهو مفهوم "التعليم القيم". ان المدرسة لا تحقق الهدف المرجو منها ولا تخدم القيمة المرجوة منها "التعليم" وازاء ذلك فان المحاولات الجادة لتحصيل العلم والمعرفة خارج إطار المدرسة أو المنظومة الرسمية، لا تحظى بالقبول.

2- التعليم القيم

بناء على فكرة التعليم الالزامي، نشأت الفكرة القائلة ان التعليم القيم والحقيقي يتم فقط داخل أسوار المدرسة، من حيث هي الأداة التي تمنح المؤهل الذي يعترف بكفاءة الأفراد ويفتح الطريق أمامهم كي يحتلوا المناصب الاجتماعية المتاحة. ووفقا لما يذهب اليه "الليتش"، فان المشكلة أي مشكلة التعليم القيم المحصور في مؤسسة المدرسة، تبرمج عقولنا على القبول بما يصطلح عليها "الليتش" بإشكالية التمدرس، أي الخلط بين المدرسة والتعلم. ويحصل هذا الخلط بسبب ترويضنا على القبول بالخدمة يدلا من القيمة، فعلى غرار الخلط بين المدرسة والتعلم، يتم الخلط بين المعالجة الطبية والعناية الصحية، وبين العمل الاجتماعي وتحسين الحياة، وبين الحماية البوليسية والأمن. وأصبح تعريف التعليم والصحة والكرامة والامن، لا يتعدى في معظم الحالات الممارسات التي تقوم بها المؤسسات التي تدعي أنها تخدم تلك الأغراض وجوهر المشكلة كما يرى "الليتش"، هو في أن تحول القيم الى مؤسسات أو ما يمكن تسميته "مأسسة القيمة".

ان ما يريد "الليتش"، قوله هو أن المدرسة لا تحقق الهدف المرجو منها ولا تخدم القيمة التي من المفترض أن تخدمها، ألا وهو التعليم، وبإزاء ذلك فان المحاولات الجادة لتحصيل العلم والمعرفة خارج اطار المدرسة أو خارج المنظومة الرسمية للتعليم، لا تحظى بالقبول من قبل الحكومة ولا بالاهتمام من قبل المجتمع وللبرهنة على ما يقول يضرب "الليتش" مثالين:

أ- في نيويورك سنة 1956، ظهرت الحاجة الى تعليم اللغة الاسبانية لعدد من الشباب من أجل خدمة عدة مئات من المدرسين والعمال الذين يعملون في احدى المشروعات وقام أحد أصدقاء "الليتش" يدعى "جيري موريس" بالإعلان عبر الاذاعة الاسبانية أنه بحاجة الى أناس لغتهم الأم هي الاسبانية، وفي اليوم التالي تقدم عدة رجال يتقنون اللغة الاسبانية من حي "هارلم" وفي نفس اليوم تقدم 200 من الشباب الراغبين في الوظيفة، وقام "موريس" باختيار فريق منهم وقام بتدريب هذا الفريق ليكون مؤهلا لهذه المهنة وبعد أسابيع قليلة بدأ كل فرد من هذا الفريق في اتقان الاسبانية وفي خلال ستة أشهر تمت المهمة بنجاح.

ب- ويحكي "الليتش"، عن تجربة أخرى قام بها المفكر البرازيلي "باولو فريري" الذي يرى بإمكان المرء ان يتعلم القراءة خلال أربعين ساعة فقط، حيث كان "فيريري" يذهب الى احدى القرى ويدون الكلمات والموضوعات التي تشغل أهالي القرية وتدور نقاشاتهم حولها، وأثناء جلسات المناقشة التي كان يعقدها الأهالي، قام "فيريري" بتعليم

الناس القراءة من خلل الكلمات والموضوعات التي تشغلهم وليس من خلال موضوعات معدة مسبقا بعيدة عن واقعهم واهتماماتهم.

ولو تأملنا التجربتين اللتين ذكرهما "الليتش"، نرى بوضوح الفرق بين المدرسة وغيرها اذ يجلس الطالب في مقاعد الدراسة لعدة سنوات في تعلم لغة ولا يستطيع تكوين حملة واحدة مفيدة، وكذلك يصل بعض الطلاب الى الصف السادس الابتدائي وهو لا يعرف فك الحروف فضلا عن قراءتها.

3- المحافظة على قيم الاستهلاك

يقوم نظام المدارس الحالي على مبادئ "الامتيازات الهرمية"، ذلك أن الذي يقضي زمنا أطول في المدارس ويحصل على شهاداتها يتبوأ مكانة أرقى في المجتمع "ابتدائي، ثانوي، ليسانس، ماستر دكتوراه...". ويعرف النظام المدرسي الحالي المزايا التي يحصل عليها الخريج بحسب المعطيات التي يوفرها المجتمع القائم للإنسان وليس بحسب أهمية هذه المزايا وضرورتها، والتي هي في معظمها معطيات استهلاكية تنافسية تتجه نحو استهلاك المنتجات التقنية التي تفرزها المؤسسات التي تسعى نحو المحافظة على الشرائح المستهلكة في وضعها الحالي.

4- مبدأ التدجين

لا تكتفي المدارس الحالية بتدجين الاكفال للاستجابة لقيم مجتمع الاستهلاك فحسب، بل تحاول جعل الانسان مدمنا لهذه القيم، وغير قادر على نقدها، فيصير كائنا مطيعا يفتقر الى ملكة النقد. وهذه واحدة من أسس العصر الصناعي التي استهدفت ان يؤدي الانسان دورا محدودا في المجتمع من خلال عملية الانتاج دون ان يكون له حق في تغيير هذا الدور. وكأن المسألة هي اعاقد غير مبرم بين حركة السوق والنظم السلطوية أساسه تفاهمات ضمنية قائمة على حاجات السوق التي تفرضها على الدولة والتي بدورها تعممها اجتماعيا عبر وسائلها الاعلامية والقانونية. وهذا الامر قد يكون مدخلا تفسيريا لعزوف الناس عن تخصصات معينة والذهاب تجاه تخصصات أخرى.

5- تسليع القيمة

يشير "الليتش" في معرض نقده للنظم التعليمية الى ان الزيادة في عدد المدارس يفوق عدد الطلاب اللازم انتظامهم في هذه المدارس، ويزعم أن هذه الملاحظة شبه العالمية، يمكن ضبطها وادراكها بشكل جيد، وهي دلالة صارخة لتحول المدرسة من دورها الوظيفي المتمثل في "مأسسة القيمة" لكي تصبح مشروعا ربحيا قائما على مبدأ "تسليع القيمة" وبالطبع فان كل عملية "تسليع" تحمل في طياتها عنصرا استهلاكيا، كما يشير الى ذلك "توماس تايلور" في كتابه "حمى الاستهلاك". فتغدو القيمة الحقيقية للمدرسة "التعلم" غير ذات بال في مقابل فائض القيمة "الربح" وهذا الذي يجعل من المخرجات التعليمية مخرجات بائسة وقيمة لها. صارت مهام التعليم المدرسي منحصر في "إبعاد الاطفال عن الشوارع ومبررا لتأخير سن الزواج ومجرد إعطاء شهادة بأن شخص ما قد انتظم في المدرسة وتخرج فيها بالتالي هو مؤهل لشغل وظيفة.

6- تمدرس الوجود

بدلا من أن يكون الوجود ساحة فسيحة يتعرف فيها الانسان على معاني الحب والصداقة والجمال والوفاء والمسؤولية، تحل المدرسة بدل الوجود في تعرف الانسان على هذه القيم، وهذا بدوره يحصر ويحدد التجربة الانسانية في مكان واحد وتصور واحد وتجربة واحدة. وهذا يظهر أكثر فيما أصبح يعرف ب"المنهاج الخفي" الذي يبدأ من القوانين الصارمة العسكرية في المدرسة الى الحالة العامة الشعورية التي يتطبع التلاميذ عليها داخل المدارس.

بالتوفيق والنجاح انشاء الله

مع تحياتي الخالصة

د. براهيمي أم السعود